# رحلة إلى القبر

أيها الإخوة المسلمون عباد الله مازلنا مع الرحلة النورانية، مازلنا مع الحج والحجيج؛ نتبع خطاهم، وننظر إلى أفعالهم، ونقف طويلًا علّنا نتعلم من هذه الحكم، علّنا نتعرف على هذه الأسرار.

وقد تكلمنا في الخطبتين الماضيتين عن أسرار وحكم التلبية التي جعلها الله شعارًا للحج والحجيج، وعلمنا أنها كلها تدل على التوحيد الخالص لله سبحانه وتعالى.

وفى هذه الخطبة عباد الله ننظر إلى أمر آخر، فكما أن التلبية هي شعار الحج والحجيج فإن ملابس الإحرام لباسهم ويا له من ملبس أبيض اللون غير مخيط! لا عمامة ولا غير، والكل سواء.

## حقًا عباد الله كأنه الكفن

وكأن منظر هؤلاء الحجيج وهم بهذا الملبس وقد اجتمعوا حشودًا عظيمة كأنهم إلى نصبٍ يوفضون، كأنهم في يوم الحشر وقد خرجوا من قبورهم.

## منسك عظيم فيه من الحكم والأسرار ما يفيد السائرين إلى الله العزيز الغفار

مشهد يذكرنا بالموت، مشهد يوقظ في أنفسنا الرهبة من هذه الساعة يقول صلى الله عليه وسلم: (**أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَادِمِ اللَّذَّاتِ**)[1]، أي اذكروا الموت، فإنك إن ذكرت الموت؛ تذكرت الحقيقة، فرجعت إلى ربك، يقول جل شأنه: ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ** ﴾[آل عمران: ١٨٥]، ويقول سبحانه ﴿ **وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ** ﴾[ق: ١٩]؛ وآيات تدل على هذه الحقيقة التي غفل عنها كثير من الناس، مع العلم أنها

[1] أخرجه ابن ماجه رحمه الله في سننه (4258)، وقال الألباني رحمه الله في صحيح الترغيب (3333): حسن صحيح.

من أعظم الحقائق التي أجمعوا عليها.

**تَزَوَّدْ من التقوى فإنك لا تدري ... إذا جَنَّ ليلٌ هل تعيشُ إلى الفجرِ**

**فكم من صحيحٍ مات من غير علةٍ ... وكم من عليلٍ عاش حينًا من الدهرِ**

**وكم من فَتًى أمسى وأصبح ضاحكا ... وقد نُسِجَتْ أكفانُه وهو لا يدرِي**

**ومن عاش ألفًا أو ألفين ... فلابد من يوم يسير إلى القبر**

فعلى العاقل أن يتذكر هذه الساعة جيدًا، ويعمل لها وكلما قرب من الله واتقاه؛ فإنه يضع هذه النهاية نصب عينية، وعرف ذلك الصحابة والتابعون لهم بإحسان ﷺ، فسمعنا منهم العجب.

يقول الحسن ﷺ: ( **فَضَحَ الْمَوْتُ الدُّنْيَا فَلَمْ يَتْرُكْ فِيهَا لِذِي لُبٍّ فَرَحًا**)[1].

فكل عاقل إذا أراد أن يتكبر، أو يتجبر، أو يغفل، أو يطغى في الدنيا؛ فالموت يرجعه عما نوى.

ولما حضر عمرو بن العاص الموت؛ دعا حرسه، وقال لهم: هل تغنون عني من الله شيئًا؟ قالوا: لا، قال: فاذهبوا أو تفرقوا عني، ثم دعا بوضوء، ثم قال: احملوني إلى المسجد فحملوه واستقبلوا به القبلة، فقال: ( **اللَّهمّ إنك أمرتني فلم آتمر، وزجرتني فلم أنزجر ووضع يده عَلَى موضع الغل، وقَالَ: اللَّهمّ لا قوي فانتصر، ولا بريء فأعتذر، ولا مستكبر بل مستغفر، لا إله إلا أنت**)[2]، يقول ذلك هذا الصحابي الجليل الذي فتح البلدان ومنها مصر، ولكنه الموت والخوف من الله.

أما معاوية ﷺ أمير المؤمنين كاتب الوحي لرسول الله ﷺ الذي في عهده اتسعت رقعة الدولة الإسلامية لما حضرته الوفاة قال: (**أقعدوني! فأقعدوه، فَجعل يذكر الله تَعَالَى ويسبحه ويقدسه، ثمَّ قَالَ: الْآن تذكر رَبك يَا مُعَاوِيَة بعد الانحطام والانهدام! أَلا كَانَ**

---

[1] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (149/2)، لأبي نعيم رحمه الله.

[2] أسد الغابة (744/3)، لابن الأثير رحمه الله.

**ذَلِك وغصن الشَّبَاب نضير رَيَّان؟! وَبكى حَتَّى علا بكاؤه ثمَّ قَالَ: يَا رب ارْحَمْ الشَّيْخ العَاصِي ذَا الْقلب القاسي)**[1].

وها هو حذيفة رضي الله عنه كان يحب الدنيا؛ لظمأ الهواجر، وقيام الليل، ومزاحمة العلماء، ولما اشتد النزع قال: (**غُطَّ يَا مَوْتُ غَطَّكَ، وَشُدَّ يَا مَوْتُ شَدَّكَ، أَبَى قَلْبِي إِلَّا حُبَّكَ، جَاءَ رَخَاءُ الْعَيْشِ بَعْدَكَ، حَبِيبٌ جَاءَ عَلَى فَاقَةٍ، لَا أَفْلَحَ مَنْ نَدِمَ، أَلَيْسَ وَرَائِي مَا أَعْلَمُ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَبَقَ بِيَ الْفِتْنَةَ قَادَتَهَا وَعُلُوجَهَا**)[2].

نعم عباد الله:

﴿ **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾** ﴾ [الرحمن: ٢٦ – ٢٧]

**إنّي مُعَزِّيكَ لا أني على ثِقَةٍ ... مِنَ الخُلُودِ وَلَكِنْ سُنَّةُ الدّينِ**

**فَمَا المُعَزَّى بباقٍ بَعْدَ مَيِّتِهِ ... وَلا المُعَزِّي وَلَوْ عاشا إلى حِينِ**

ولهذا فإن النبي صلى الله عليه وسلم نصح أمته أن يتزودوا ويعملوا لهذا اليوم فقال صلى الله عليه وسلم: (**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**، وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: **إِذَا أَمْسَيْتَ؛ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ؛ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ**)[3].

أما نحن فإننا نكره الموت؛ لأننا عمرنا الدنيا وخربنا الآخرة، فكيف لإنسان يحب أن ينتقل من العمار إلى الخراب؟! نحن إذا نظرنا إلى أعمالنا لقلنا ﴿ **أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾** ﴾، هذا عن الموت عباد الله، فماذا عن القبر، عن بيت الدود، عن بيت الظلمة، عن هذا المكان الموحش؟!!

---

[1] العاقبة في ذكر الموت (135/1)، لعبد الحق الأشبيلي رحمه الله.

[2] وصايا العلماء عند حضور الموت (54/1)، للربعي رحمه الله.

[3] أخرجه البخاري رحمه الله في صحيحه (6416).

كان عثمان بن عفان رضي الله عنه إذا وقف على القبر يبكي، حتى يبل لحيته، فقيل له: تذكر الجنة ولا تبكي وتذكر القبر فتبكي؟ فقال رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (**إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنْزِلٍ مِنْ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ؛ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ؛ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ**)[1]، وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (**مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا قَطُّ إِلَّا وَالْقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ**)[2].

## هذا هو القبر الذي أمامه خشع من خشع

سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**أَتُـرَدُّ عَلَيْنَـا عُقُولُنَـا يَـا رَسُـولَ اللَّـهِ؟ فَقَـالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: نَعَمْ، كَهَيْئَتِك الْيَوْمَ**)[3].

## فانظر إلى هذا الموقف العصيب وهو سهل على من يسره الله عليه

(**كَهَيْئَتِك الْيَوْمَ**) كأنك حي، فلو تدبرت هذا الأمر لعلمت أن الأمر يحتاج منا إلى وقفات أمام أنفسنا، فدقيقة واحدة في هذا العذاب والرعب تنسيك كل اللذات التي من أجلها تركت الواجبات واقترفت المعاصي والخطايا.

واعلم عبد الله أن القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران، كلٌ على حسب حاله، فالعذاب في القبر بالروح والجسد، وأيضًا النعيم بالروح والجسد (كهيئتك اليوم).

وللقبر ضمة عباد الله يقول عنها صلى الله عليه وسلم كما في حديث ابن عباس رضي الله عنه: (**لِلْقَبْرِ ضَغْطَةٌ لَوْ نَجَا مِنْهَا أَحَدٌ، لَنَجَا مِنْهَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ**)[4].

والمعذبون في القبر تعلو أصواتهم وتشتعل النيران بهم، يقول عنهم صلى الله عليه وسلم: (**إِنَّ الْمَوْتَى**

---

[1] أخرجه الترمذي رحمه الله في سننه (2308)، وقال: حسن غريب، وحسنه الألباني رحمه الله في صحيح الترمذي (2308).

[2] أخرجه الترمذي رحمه الله في سننه (2308)، وقال: حسن غريب، وحسنه الألباني رحمه الله في صحيح الترمذي (2308).

[3] أخرجه ابن حبان رحمه الله في صحيحه (3115).

[4] أخرجه ابن حبان رحمه الله في صحيحه (3112)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع بلفظ مقارب (2180).

**لَيُعَذَّبُونَ فِي قُبُورِهِمْ، حَتَّى إِنَّ الْبَهَائِمَ لَتَسْمَعُ أَصْوَاتَهُمْ)**[1]، ويقول ﷺ: **(فَلَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا؛ لَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ)**[2].

فلنذكر ذلك عباد الله جيدًا، فالكل داخله لا براءة لأحد، إن القبر إن يكن يسيرا؛ فما بعده أيسر، وإن يكن شديدا؛ فما بعده أشد.

فآه من هذه الغفلة التي نعيشها، آه من هذه المعاصي التي نقترفها، آه من هذه القسوة التي في قلوبنا، بل آه من بيت الدود الذي ينتظرنا.

**آهًا لهُ بيْتِ البِلَى والمنزِلِ القفْرِ الخَلا ... ومورِدِ السّفْرِ الأُلى واللاّحِقِ المُتّبعِ**

**بيْتٌ يُرَى مَنْ أُودِعَهْ قد ضمّهُ واسْتُودِعَهْ ... بعْدَ الفَضاء والسّعَهْ قِيدَ ثَلاثِ أذْرُعِ**

**لا فرْقَ أنْ يحُلّهُ داهِيَةٌ أو أبْلَهُ ... أو مُعْسِرٌ أو منْ لهُ مُلكٌ كمُلْكِ تُبّعِ**

فإن كان الأمر كذلك عباد الله؛ فلنرجع إلى مولانا سبحانه وتعالى، ولنتزود من دار الممر إلى دار المقر.

**لكننا غفلنا غفلة طويلة مريرة لم نتعظ بكتاب ولا سنة ولا بموت ولا قبر**

حتى إننا ونحن في مواقف الموت لم نبحث عما يرضي ربنا فيها، بل يقلد بعضنا بعضًا بدون علم وبدون وعي، فنرى الناس يقيمون الأربعين، والخميس، وطلعة رجب، وشق القبر، والموعد السنوي، والجمعة البطالة.

كل هذا ما أنزل به الله من سلطان بل بدع ابتدعها المسلمون ليضل بعضهم بعضًا، يقول ﷺ: **(مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ؛ فَهُوَ رَدٌّ)**[3].

**ولكن ما الذي ينفع الميت؟**

**أولًا:** هو ينفع نفسه قبل موته بالأعمال الصالحة والصدقات الجارية التي يأخذ بها الأجر

---

[1] أخرجه الطبراني رحمه الله في المعجم الكبير (10459)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (1965).

[2] أخرجه مسلم رحمه الله في صحيحه (2868).

[3] أخرجه البخاري رحمه الله في صحيحه (2697)، وأخرجه مسلم رحمه الله في صحيحه (1718).

ولو كان في قبره.

**ثانيًا**: بالوصية الشرعية يقول ﷺ: ( **مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ يُوصِي فِيهِ يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ**، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما: **مَا مَرَّتْ عَلَيَّ لَيْلَةٌ مُنْذُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ ذَلِكَ إِلَّا وَعِنْدِي وَصِيَّتِي**)[1].

فلتوص بما يرضي الله، فإن كان لك شيء اكتبه، عليك شيء اكتبه، أردت أن توصي للفقراء، أو لبناء مساجد، أو ما إلى ذلك من القربات فلا يكون ذلك إلا في حدود الثلث، والثلث كثير، فلتوص بسنة رسول الله ﷺ، فأوص بألا يُغَسِّلك إلا الأمين، وألا ترفع النساء صوتها بالنحيب، فقد قال ﷺ: ( **مَا مِنْ مَيِّتٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ بَاكِيهِ فَيَقُولُ: وَا جَبَلَاهْ، وَا سَيِّدَاهْ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ؛ إِلَّا وُكِّلَ بِهِ مَلَكَانِ يَلْهَزَانِهِ: أَهَكَذَا كُنْتَ؟!!**)[2].

فإن وصى، وعلم نساءه، وأولاده بالسنة، فإن أخطئوا؛ فلا إثم عليه.

**ثالثًا**: مما ينفع الميت الصلاة عليه، فليصل الناس عليه بخشوع؛ لأننا كلنا سوف نكون مقامه.

**رابعًا**: استئناسه بإخوانه بعد الدفن، فإنهم يدعون له حتى إن النبي ﷺ كان: (**إِذَا فَرَغَ مِنْ دَفْنِ الْمَيِّتِ؛ وَقَفَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ ثُمَّ سَلُوا لَهُ بِالتَّثْبِيتِ؛ فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ**)[3].

**خامسًا**: الصدقة الجارية من أولاده والاعتمار والحج له، كل ذلك ثبت صحته عن رسول الله ﷺ.

**سادسًا**: ترك البدع نحو: الصوان، والخميس، والأربعين، والليلة الكبيرة، وما إلى ذلك.

عباد الله إنها ساعات في هذه الحياة الدنيا، وأمامها سنوات، بل قرون، بل آلاف السنين،

---

[1] أخرجه البخاري رحمه الله في صحيحه (2738)، وأخرجه مسلم رحمه الله في صحيحه (1627).

[2] أخرجه الترمذي رحمه الله في سننه (1003)، وقال: حسن غريب، وحسنه الألباني رحمه الله في صحيح الترمذي (1003).

[3] أخرجه أبو داود رحمه الله في سننه (3221) وسكت عنه، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح أبي داود (3221).

بل ملايين، بل قل إلى الأبد.

**فهل نضحي بنعيم عظيم خالد من أجل وهم قليل زائل؟**

فلنقف مع أنفسنا، ونراجع حساباتنا، ولنترك الخمول وندعه، ولنترك الغفلة ولندعها، ولندع المعاصي والفسق دع عنك ما يبعدك عن الله تعالى دع عنك الشر دع عنك الشيطان.

**دَعْ عَنْكَ مَا قَدْ كَانَ فِي زَمَنِ الصِّبَا ... وَاذْكُرْ ذُنُوبَكَ وَابْكِهَا يَا مُذْنِبُ**

**وَاذْكُرْ مُنَاقَشَةِ الْحِسَابِ فَإِنَّهُ ... لابُدَّ يُحْصِي مَا جَنَيْتَ وَيُكْتَبُ**

**لَمْ يَنْسَهُ الْمَلَكَانِ حِيْنَ نَسِيتَهُ ... بَلْ أَثْبَتَاهُ وَأَنْتَ لاهٍ تَلْعَبُ**

**وَالرُّوحُ فِيكَ وَدِيعَةٌ أَوْدَعْتَهَا ... سَتُرْدِهَا بِالْغُرْمِ مِنْكَ وَتُسْلَبُ**

**اللهم إنك أحق من عبد، وأحق من ذكر، وأجود من ابتغى، وأرأف من ملك**

**أنت الملك الذي لا شريك له، وأنت الفرد الذي لا ند له**

**كل شيء هالك إلا وجهك.**

**لن تطاع إلا بإذنك، ولن تعصى إلا بعلمك**

**تطاع فتشكر، وتعصى فتغفر**

**حِلْتَ دون النفوس، وكتبتَ الآجال، ونسختَ الآثار**

**القلوب لك مفضية، والسر عندك علانية**

**والحلال ما أحللت، والحرام ما حرمت، والدين ما شرعت**

**والحكم حكمك، والملك ملكك، والخلق خلقك، والأمر أمرك**

**هكذا عباد الله نفحات ورحمات وثمرات من هذه الرحلة النورانية رحلة الحج**

**نسأل الله أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه**

**ونسأله أن نكون من المخلصين**